

حمولة الصورة بين التجديد والتبديد. عند جان بودريار

Jean Baudrillard's image of the image between renewal and renewal

حيدش سعد

جامعة الجزائر - hidech81@gmail.com2

تاريخ الاستلام: 2025/04/02 تاريخ القبول: 2025/05/28 تاريخ النشر: 2025/06/17

ملخص :

واقع يتجلى في صورة مركبة خالي من العمق، يفتقد إلى قاعدة أو أرضية ثابتة، أو بما يسميها بودريار نهاية الجوهر والمرجعيات وكل ما يرتديه هذا الواقع من مسلمات وحقائق، يعجز الإنسان على إثباتها نظرا لمحاكاتها، عبر آليات عصرية، حيث شكلت صورة قاتمة عن الواقع الحقيقي، وأنتجت واقعا مماثلا يتسم بالنموذجية فاقد للعمق والتأصيل، إذ تشع حالات منه بالتضليل وتعزز سماءه قيما مزيفة تحمل ظل الحقيقة وماهي بحقيقة.

كلمات مفتاحية: الصورة. الواقع الحقيقي. الواقع المزيف...

Abstract

A reality manifested in a composite image devoid of depth, lacking a solid foundation or grounding, or what Baudrillard refers to as the end of essence and references, and all the assumptions and truths this reality wears. The individual is unable to prove them due to their simulation through modern mechanisms, which have shaped a grim image of true reality and produced a similar one characterized by a lack of depth and foundation. Its manifestations often radiate deception, and its sky is filled with counterfeit values that bear the shadow of truth but are not, in fact, true

Keywords: The image. The real reality. The fake reality

□ المؤلف المرسل: حيدش سعد

1. مقدمة

إن الصورة من طبيعتها قد تكشف عن نفسك الماضية، التي لم تكن حينها جزء من الذاكرة، فتبرز بعد كل هذه الأزمة، أنك كنت عبارة عن نقطة شكلت بناء، يحمل بينها مشاعر الصغروخيالات الصبا صارت حلما وشاهدا على بداية الأمل، والذي لن يزول بزوال المشهد وحكايات الرحلة، التي لم تنفض رغم زحف السنين. تحاول الصورة أن تذوب عبر الزمن وتنطفئ بتراكم الأحداث، إلا أنها تظل شامخة كالطود، تشعر بدلالاتها بأنها ذاكرة الشعوب، وأنها بثت اللحظة لكي تسترجع من خلالها المشهد والوقائع، فموقفها يدلي بوجودها، وتكشف عن بعض التفاصيل الماضية، تحرص على توطيد العلاقة بين اللحظة الهاربة والموقف الراهن. الذاكرة وحقيقة الزيف الإيديولوجي:

تعبّر الصورة بين مسافات التاريخ عن الحياة، فهي لا تموت رغم أن حملتها مدفونة ومنسية، تشكل همزة وصل ونقطة بداية لتظهر عن أثر رمزي ليس ملموسا صامتا ومستمر، الصورة تعيد الزمن بتسلسل الإرث الذي تتقاسمه الإنسانية وعالم يتوق للتغيير، فتبقى الصورة شاهدا عن تراث كان حقيقة يركز عن رؤية واقعية وتحولاتها، فتبرز عن سر النفس وترصد الداء في ملامح الأشخاص والألوان، وتشكل وثيقة تحيل إلى الشخوص والبناء، كما تعكس وجهة حقيقية لزاوية الحدث الرمزي.

الصورة تركيبها معقدة فضفاضة، لا تستطيع تصنيفها أو تجد لها شاطئ معين تتوقف عن مفهومها، فالوضعية التي تحوم حول المفهوم، جعلتها تغرق في الغموض والإبهام، مما نتج عن عدم استقرارها والوقوف على هيئة واحدة، وعلى حد قول (فرانسوا مروا (m. francois. أن الصورة تظل غامضة لها طريقة التعميم لاستعمالها خلفية أسلوبية مضطربة في حدود بلاغية مهمة) فرانسوا مروا/18)

فالصورة ترصد إبداعات متصاعدة وأفكار متنامية، فيتعلق الأصيل بالمحاكاة، وبلا تناقض أحيانا ويصبح التشابه حقيقة حتى يصل الاصطناع إلى حالة الدهشة، حيث يتداخل البلاغي المجازي بالواقعي فتكون صيرورة الصورة أكثر امتلاء وجودة

وجاذبية وو اقعيته من الواقع الحقيقي ذاته، فتستعيد تدخلاتها الواقعية، حتى أنها تستل من طبيعتها وتتقمص إرادة غير إرادتها المعتادة، دون أن تنفصل عن الواقع فلا تظهر حركة الزيف المرتبطة بها، ولا تبدي اضطرابا ذاتيا يقصر من فعاليتها ورمزيتها حسب تعبير بودريار.

وفي ثانيا ذلك يكشف المضمون البودرياري Jean Baudrillard عن صورفنية لغوية ونقدية من جانبها التراثي، ترتكز على فكر كل من رولان بارث وجاك ديريدا، وإزاء التدخلات الثقافية مكنته من الاستفادة من الفكر الماركسي، ظهرت عبر تحليلاته النقدية للإرث الفلسفي والسوسيولوجي، كما كشفت المرحلة على المناقشات الإعلامية التي جمعته بمعاصريه.

وعن سياق خلقه الصورة لألوان الزيف، تتشكل بذلك إيديولوجية جديدة، يشير في هذا الطرح أشرف منصور بأن ماركس يضيف إشكالية الإيديولوجية، التي تشتغل على قلب الواقع كليا، وتسجن فكر الفرد والمجتمع، وأن التحولات الضرورية للوجود الاجتماعي، لابد أن تخضع لتغيير الأفكار أولا، ثم تغيير الواقع ثانيا.

ويعتقد ماركس حسب قول المؤلف، أن الواقع يقف على رأسه بدلا من رجليه، مضيفا أن هذا الاتجاه استحوذ على العقول نتيجة العمل الإيديولوجي، يحدث هذا الفعل تماثلا مع التقنية التي تقوم بها الكاميرا (الصورة)، وتماشيا مع الفعل المزدوج، للالتقاط الصورة ثم قلبها على رأسها داخل جهاز الكاميرا وهو الشيء ذاته في الفلسفة الإيديولوجية (منصور أشرف : ع 62/2003 / 227)

فالصورة عبارة عن مركب مرئي، يتضمن المكان وويتجاوز الزمان، بذلك تكشف عبر خيوطها، عن محاكاة الوجود بكل تفاصيله، بتعبير الترجمة الحرفية للواقع الحقيقي، فالشكل ليس معطى هلامي، بل يتحمل الصدق والتجربة معا، حيث تكشف تعابيرها على فجوة معينة، تكون متعددة الملامح، إذ الدال هنا، قد يشير إلى أكثر من مدلول، مما يعبر أن الاتصال حلقة معقدة، وعبر الصورة توجي إلى شبكة من الأنماط المتواترة على حد تعبير بارت.

ومن منطلق آخر قد تعكس الصورة الواقع دون نقصان، إلا أنها تضيف مساحيق أكثر اعتباراً، تجلب إليها المشاهدة بنسبة عالية، من ملاحظة الواقع ذاته، وتكون بمثابة رسالة مثبتة وخالدة عبر التاريخ، غير قابلة للنقد.

إن الصورة بإمكانها أن تصبح أكثر تجذراً من الواقع، وأكثر وضوحاً ومصداقية، في اعتقاد المتعاطفين مع الحدث، ففكرة الاصطناع لم تكن بعيدة، كما طرحها ديريدا في مبدأ الحقيقة المغيبة، وهو الشأن نفسه ما أثاره ماركوزا حول صورة الميديا، وما تؤلفه مادياً ومعنوياً، لكي تصبح رسالة توظف المجاز البلاغي، وتنتج الرمزي.

الصورة ومفهوم الهوية الاجتماعية:

يظهر بودريار Jean Baudrillard من خلال تحليلاته، أنه لا يمكن التفرقة بين أصناف الأفكار والعلوم، فالكل متداخل لديه وقد يتشعب الواقع بالرموز البديلة الخفية نتيجة المحاكاة، إذ تولد طبيعة المحاكاة صبغة داعمة للاختلاف، وأن ميزة ظهور الأفكار المتضادة، ليست في المجال الوجودي فحسب، بل في تثبيت البديل أيضاً، رغم انشطار جزئياته، فالتمييز يكمن في الأصل المثير.

في اتجاه آخر، يغلب على لغة بودريار Jean Baudrillard التأويلات، التي تكشف عن لغة ثانية لنصوصه، تتفاعل بين حيثياتها شخوص، تبدو للمتتبع حقيقية تتطبع بالمحاكاة والتشابه، حيث أشارت جملة كتاباته حول الاستهلاك للصورة، وتطوراتها في المجتمع الغربي، إزاء تزايد حالات الإنتاج وتنوعه، كما انشغلت أفكاره حول أثار الأبعاد السوسيولوجية، في تحليل الوقائع الاجتماعية، خاصة في تحليل الاتصال والإعلام، ويشاركه الكثير ممن كتبوا عن الإعلام الإلكتروني، حيث ركز في كتابه عن طبيعيات المجتمع في حقل الاستهلاك الحديث، وعن مدى أثر رمزيته وما تشكله لغة الإشارة في عملية الإنتاج الثقافي.

من جهة فقد سمح لبودريار هذا التحليل من خلال رؤيته لرونل بارت، الذي طور فعل السيميولوجيا، وتحليلات مختلفة التوجهات، وقد تبدو تركيبة شخصية بودريار، تراهن على ازدواجية المفهوم والأسلوب النقدي، للتحليل الإشاري،

والكشف عن الحلقات الرمزية للمشروعات الاجتماعية والثقافية المرتبطة
(بالاستهلاك) جون سكوت. 105/2009.

يستمد بودريار Jean Baudrillard صورة الإشارة من أفكار فوكو أيضاً، بعد ما شهدت عمليات التوسع والتطور التاريخي للإشارة، ومن ذلك كيف تم إنتاج الواقع إزاءها عبر عصور مختلفة، خلاصة الأمر، فقد أمكن استغلالها في عملية النقد الاجتماعي والإعلامي.

يتصور بودريار أن الإفراط الحاد في وسائل الإعلام، أدى إلى الابتذال، خاصة في تعويم الاجتماعي زيادة على الدفع بنشر المعلومات كحالة سائلة، إلى جانب الإحجام عن التدفق في المعنى، مما صار مشكلة نتيجة التفكك، وتعدد المفاهيم واهتزاز النظام الفكري الاجتماعي داخل وخارج الاتصال الاجتماعي، مما تطلب إضافة معرفة اصطلاحية، وكل هذا الفكر الحدائي أجهز على الإنتاج التقليدي وزعزع الاستقرار للبناءات الاجتماعية (جون سكوت. 10/7 2009).

تتشكل الصورة على شاكلة طبيعة المفاهيم الجديدة، والتي تعكس بديلاً عن الخيال المتصل بالأصل، رغم خروجها عن طبيعتها وهويتها أحياناً، تبرز في مضمونها تعدد المدلول، وتبقى الدال يمثل ذاته، يفرز دلالات من ذاته فقط، هذا مما جعل الصورة تنوع فيها المعاني، وتختلف تأويلات خطاباتها، وتتوقف من خلال ذلك المحاكاة، التي ترسم المعنى المتداخل، والذي يجانب الحقيقة في الظاهر، عكس العمق المزيف الذي يمتزج بالوقائع الاجتماعية والفنية، وغير منفصل عن الجوانب التي لها صلة بالسند اللغوي الكهفي .

بهذه الخاصية أراد بودريار Jean Baudrillard ، أن يظهر إنتاج الوجود، سواء كان عبارة عن أفكار أو فنون أو نشاط اجتماعي، فقط أن يكون ضمن هذا الافتراضي، لكن حدود التشابه وتكراره في صورة محاكاة، تعكس القالب الواقعي المتجاوزة بذلك الطبيعة الحقيقية، والقفز عن الأطر الأصلية و الفواصل المسطرة، إذ تؤكد القاعدة في كل مرة عن انهيار الجدار الفاصل بين الواقعية والخيال.

فعملية المحاكاة ظاهرة فنية عند بودريار، حيث تمكن الواقعية في اعتقاد الكثير، ولها القدرة على تشكيل الذات، وأنها تؤخذ مثل اللقمة الصائغة، في حين يعتبر بودريار الفضاء المتزايد تناقضا مثل السيل المتدفق الذي لا يعرف الركود ولا الاستقرار، وقد أجبرت الميديا الهادفة البيئة الاجتماعية الثقافية، على تحولات قصرية في بنيتها، وانعكاسه على كل التوجهات والمبادلات ومجالات الحياة. الافتراضي لم ينفصل عن الحقيقة ... ولكن مستقلا عن واقعها:

تعتبر الحركة الافتراضية عن بلورة الواقع في سياق جديد، رغم ما نجده من صناعة تواصلية بين الأطراف ودفع بحياة الحوار والتفاعلات، إلا أن الهوية المتقلبة و المزاجية، فرضت تأكلا حقيقيا، وجعلت الجميع يتفاعل عبر هذه الميديا أكثر من حركة الحضور الفيزيائي، وكل هذه الامتيازات، فإنها أدت إلى تجاوز التقاليد والأخلاق واختراق ثقافي، يصعب فكاهه وبالتالي تكسرت الثقة على صخرة، واهتزت المصادقية عكس ما كان ينتظر منها.

تشكل مساحة الواقع الافتراضي هنا، أفضل الأساليب لتجسيد سلطة شبه حقيقية، تتناول صورة المحاكاة لفعل متعدد باستخدام نتائج جميع الحواس، وهي ميزة تشكل وفق هندسة الحاسوب، وتؤدي إلى التفاعلات المختلفة بين الأفراد المستخدمين لهذه الأجهزة، دون الشعور أحيانا بالفروق الفردية، وبين الواقع الحقيقي.

وتبدو السمات العامة للافتراضي شبه واقعية خادعة، ومن ثم محاكاتها يصعب التفرقة أحيانا بينهما، بل تصبح الصورة افتراضية أحيانا، أجمل من الواقعية ومقنعة وجذابة، حيث تحقق جوانب كثيرة، يعجز الشخص تحقيقها واقعا، أو حتى مشاهدتها، نظرا لعسر تجسيدها ميدانها أو لعدم إمكانية الكشف عن أسرارها، والوصول إلى حقيقتها نتيجة الصعوبة أو استحالة وقوعها، لهذا كان عالم الافتراضي رؤية أخرى بديلة تتجاوز مخاطر الواقعية والاستعمالات عبر هذه الأجهزة) إبراهيم عبد الله البطلان. 1، (2013)/(83).

وفي إشارة لأحدهم حول تعريف الواقع الافتراضي، بأنه عبارة عن محاكاة لبيئة واقعية أو اصطناعية، تتمتع بخصائصها الحواس تجربة وتفاعلا، كما يضيف أن

الواقع الافتراضي تتمتع حمولته ببيئة ثلاثية الأبعاد عبر الحاسوب، يقوم بتجسيد الحسابي كنماذج مستخدمة، مما تفتح الأجهزة محاكاة للمناقشة، و تدوير المفاهيم.(أحمد سعيد طلبة (2008) /112، ...) وقد يضاف لهذا الواقع الافتراضي، أنه خاصية من خصائص المحاكاة لصناعة بيئة لها نفس التركيبات للبيئة الواقعية، ووفق إحداثيات المتغيرات الظرفية التي يتعامل بها الإنسان الواقعي.

فوسائل الاتصال تورطت، في تشكيل قيم موازية للقيم الفعلية، وهذه الخطوة بمثابة بؤرة صراع خفية حرفت الواقع، وزادت في حدة الاختلاف وشدة التحولات والتدمير الممنهج للقيم الاجتماعية، وقد أوضح جان بودريار هذا المضمون، أن التفسخ الحاصل، والذي أدى إلى تكثيف وغلق كل منافذ الحقيقة ونشر حالة مماثلة التي تشكلت بين الواقع الحقيقي والعالم الافتراضي (نحن نشهد في كل الأمكنة كما هائلا ومستمر للواقع بأنواع الصور و الأخيلا المفترضة)(94/25) Boudrillard jean 94/p

وبعد هذا الاندماج السلبي الذي فقدت من خلاله صورة الهوية مضمونها الحقيقي، جعلت الواقع ميت، كما حدده بودريار، وأصبحت الشهية مستلبة مندحرة، نحو الأسفل نتيجة التأثير المكسر من قبل العالم الافتراضي، الذي تلاشت حدوده بينه وبين الواقع الحقيقي، فكان الاغتراب صنعة لتدمير الذات وخلقنة لقطيعة متواصلة.

يتناول بودريار Jean Baudrillard مفهوم الاتصال المفرط الذي يفتقد إلى حلقة الوسط بين الحقيقة والخيال، أو بمعنى عدم استعاب الوعي الاجتماعي، كالتفريق بين الشيء الأصلي والشيء المزيف، وعدم التمييز بين الواقع الحقيقي والعالم الافتراضي، واختفاء المسافة الفاصلة بينهما وذوبان عنصر الاختلاف بين كل من العالم المادي والصورة المماثلة الخيالية، مما يصبح الفرد يتصرف وفق حريات الواقعية المفرطة، وهو الشيء الذي عبر عنه بودريار بأن العالم الأصلي أصبح مهتزاً في وعينا، ولم يعد تقليده طبيعياً، نتيجة تطوراً وسائل الاتصال على

العقلية واحتوائها والقدرة على توجيهها، وفق متطلبات مشهديات عصر ما بعد
الحادثة94/p24(Boudrillard)).

في مستهل الحديث عن الإعلام الحديث، أمكن بودريار تحديد خصائصه، إذ
بحسبه أصبح النقطة الرئيسية للمعلومات ومصادر الخبر، ما جعل المجتمعات
الحديثة تولي اهتماما بالغا لهذه السيولة الإعلامية، وتشير أنظارها للعديد من
القضايا التي باتت تشغل الرأي العام.

بهذا صارت الأشياء الغامضة مزاحمة للحقائق، زادت بعدما تأخرت الأحكام
العقلية في قرارها النهائي، ولم تتمكن من تحديد المعايير، التي كانت تحكم بذاتها
على الحقيقة، وتعطى إفرزات فعلية، إلا أنها أصبحت الآن لا تؤدي هذه المهمة،
وضاع المثالي في العمق السلي الذي عمت هذا الأخير أساليبه.

وبواسطة هذه الشبكة، يتحول المفهوم عند بودريار إلى فلسفة (تقنية) تتباين
مراتبها بين الاستخدامات، فمصطلح الإخفاء يعني التظاهر بعدم امتلاك ما
نملك(بودريار جان. 2008 / 47). لأن ستر الشيء أو حجبته عن الأنظار يرجع إلى
وجود الشيء وامتلاكه، فإنه لا يمكن إخفاء الشيء أو التستر، مما هو غير موجود،
لذلك جاء المصطلح الثاني، وهو الاصطناع خلافا للأول، الذي يتظاهر بامتلاك
الشيء ما لا تملك، وبحسب بادعاء حجب الشيء دون وجوده البتة، مما يوقع فكرة
حقيقة الخيال، وإذ يقول بودريار لا تستطيع التعامل معه موضوعيا لا كمريض ولا
كسليم، ما جعل الحقيقة تغيب في وسط ملغم وصارت الواقعية غير
معروفة.(بودريار جان. 2008 / 48).

فغياب الحدود بين الواقع والخيال صعب التمييز بينهما، ما أوقع الأمر في تدمير
المعاني والرموز، ونتيجة تداخل يبين النموذج الأصلي والنموذج المصطنع، كل
هذا جعل الواقع مضطربا، وفي حالة من التناقضات وفقدان التوازن وانعدام
الرؤية للقيم الاجتماعية، وأدى كذلك إلى انهيار الجدار الذي يفصل بين الواقع
والزيف، وهو الشيء الذي أكده بودريار بأن المسافة بين الحقيقة والاصطناع
تقلصت ولم يعد هذا الزيف له استقلالية أو انفراد عن الواقع الحقيقي.

المراجع

حمولة الصورة بين التجديد والتبديد. عند جان بودريار

إبراهيم عبد الله البلطان. التكنولوجيا الرقمية وتطبيقاتها في تعليم العلوم، دار الشروق للنشر والتوزيع، ط1، (2013)، ص83. عمان الأردن.
أحمد سعيد طلبة التعليم الالكتروني في التعليم العام، الشبكة العربية للتعليم المفتوحة والتعليم عن بعد، ط1، (2008) ص112، الأردن.
بودريار جان. المصطنع والاصطناع...ت. جوزيف عبد الله. المنظمة العربية للترجمة ط1 2008 ص47. بيروت.
جون سكوت. ت محمود محمد حلمي. خمسون عالما اجتماعيا أساسيا. الشبكة العربية للأبحاث والنشر.. ط1 2009 ص105. بيروت.
فرانسوا مروا: البلاغة مدخل الصورة البيانية. ت. محمد الولي وعائشة جرير. دار النشر الشروق - دار البيضاء ص 18 -
المغرب

منصور أشرف : صنمية الصورة .نظرية بودريار في الواقع الفائق.
فصول. مصر/ع62/2003 ص 227.

https://www.academa.edu/35875815...https://search.mandumah.com/record/236603

Boudrillardjeam.simulacra and simulation (Ann arbor .Mi--
University of michigan(ouriginalworkpublished 94/p ..25